مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (2)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (2) 2013

ملامح الحداثة في شعر يوسف الخال

الدكتور يوسف حامد جابر*

(تاريخ الإيداع 12 / 3 / 2012. قبل للنشر في 2 / 5 / 2012)

□ ملخّص □

تمثل الحداثة الشعرية حركة نامية تهدف إلى التجديد المستمر لبنية الشعر ودفعها إلى الأمام، من خلال التطلع والبحث والكشف وتجاوز القديم، في محاولة لجعل الشعر يضارع الحياة في تطورها وتبدل أشكالها. وإذا كان الشاعر يوسف الخال يمثل أحد أبرز وجوه حركة الحداثة في الشعر العربي الحديث من خلال وعيه بأهمية تحديث الشعر، وضرورة مواكبته للحياة، فإن هذا البحث يسعى للوقوف على أبرز تجليات الحداثة في شعره، ويحاول وصفها، وإضاءة مرتكزاتها.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، الشعر، الخال .

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (2)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (2) 2013

Features of Modernism in Yusef al-Khal's poetry

Dr. Yusef Hamid jabber*

(Received 12 / 3 / 2012. Accepted 2 / 5 / 2012)

□ ABSTRACT □

Poetic modernism represents a developing move that tends to achieve constant renewal to the structure of poetry, as well as, keep it abreast via aspiration, research, investigation and marginalizing the archaic, in an attempt to make poetry match the changes and improvements of everyday life. However, if the poet Yusuf al-Khal represents one of the most famous figures of modernism in the contemporary Arabic poetry, as it is apparent in his intelligibility of the significant need to modernize poetry , and harmonize as its essentialities, then this piece of research endeavours to discuss the most obvious aspects of modernism in his poetry, describing and highlighting its core basics .

Key Words: Modernism, poetry, al-Khal.

***Associate professor, Department of Arabic, faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

ترتبط الحداثة بمعناها العام بالانزياحات الحاصلة في مجالات الحياة المختلفة، في الأدب والفن والسلوك والعقائد وأنماط الإنتاج والقيم، في كل زمان ومكان، بمعنى أنها تشكل تحولاً فاعلاً ناتجاً عن إعادة النظر في الأنظمة المعرفية المختلفة التي تسعى إلى تجديد القديم، ودفعه باتجاه التطوير والاختلاف .

وهي، بهذا المعنى، مفهوم لازمني، يتخطى حدود التاريخ والجغرافيا، وينتج عنه مواقف إضافية، ورؤى متجددة، تعيد كشف العالم، وتعمل على صياغة مفرداته، وفقاً للتحولات الحاصلة، بشكل لافت، وغير نمطي .

وإذا كانت هذه الدراسة تهدف إلى تتبع ملامح الحداثة في شعر (يوسف الخال) فإنها ستنأى عن الخوض في مسارات الحداثة الأخرى غير الشعرية، ذلك أن الحداثة، وفقاً لتلك المسارات، حداثات تتفاوت في طبيعتها، وفي طرائق توضعها داخل حدود الزمان والمكان، وهي ، وإن كانت تسهم بشكل أو بآخر، في خلق، أو فرز حداثة على مستوى الفن بعامة، والشعر بخاصة، غير أن العلاقة هنا ليست قياسية دائماً، بل قد تكون علاقة عكسية، خاصة في المجتمعات العربية التي شهدت قطيعة معرفية بين الحداثة الشعرية والحداثات في أنماط الإنتاج ، والعلاقات الاجتماعية الأخرى، لأن الحداثة الشعرية العربية انبثقت هنا من حاجة معرفية لتطوير أنماط الشعر السائدة، دفعتها النخبة الواعية المتمثلة بالطبقة الوسطى التي أخفقت في تطوير أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكان تطوير الشعر في بنيته ومفاهيمه هو الهدف الجديد الذي تم السعي إليه وتحقيقه .

وقد جاء اختيار شعر (يوسف الخال) هنا لأسباب عدة، منها أن هذا الشاعر تمرد على القصيدة العربية التقليدية، بأطرها المختلفة، وسعى إلى تجديد أشكالها ومضامينها، فضلاً عن أن هذا الشاعر أسس مجلة شعر في بيروت عام 1957 التي كانت من أهم المنابر الثقافية العربية، حيث سعت إلى تجديد الشعر العربي، والمقاربة بينه وبين الشعر العالمي الذي كان شهد تطوراً حاسماً في ميادينه كافة، وقد ضمت المجلة نماذج شعرية لنخبة من شعراء الحداثة، منهم: أدونيس، نذير العظمة، السياب، أنسي الحاج، توفيق صايغ، محمد الماغوط، وغيرهم . إضافة إلى ما سبق، فإن (يوسف الخال) لم يكتف بالتحديث في الشعر، وإنما سعى إلى التنظير له، من خلال مقالاته المنشورة داخل أعداد مجلة شعر، ومن خلال كتابه (الحداثة في الشعر) الذي قدم فيه رؤيا جديدة للحداثة الشعرية، بشكل عام، ولمفهوم القصيدة الحديثة بمحمولاتها المختلفة بشكل خاص .

من هنا، يمكن القول، بأن اختيار هذا البحث، قد جاء في إطار السعي إلى التعرف على ملامح الحداثة الشعرية في شعر هذا الشاعر التي تجسدت في مجموعة من المفاهيم، نختار منها: اللغة الشعرية، الصورة الشعرية، الرؤيا الشعرية، بصفتها المفاهيم الأكثر حضوراً في حركة الحداثة، وهي مفاهيم مترابطة ومتفاعلة ومتناغمة، داخل نصوص (الخال) الشعرية .

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية البحث وأهدافه في إطار التعرف على ملامح الحداثة الشعرية في شعر يوسف الخال، والوقوف على أبرز المعطيات الشعرية التي قدمها الشاعر دليلاً على انتمائه للحداثة، وتمثله لمفاهيمها، بما يسمح بالقول بأن (الخال) أسهم بصورة لافتة، بتقديم تجربة شعرية ، تجاوز في جوانب عديدة منها البنى الشعرية الموروثة، وسعى إلى جعل الشعر عملية خلق إبداعية مستمرة ، وهذا ما حاول البحث التوصل إليه .

منهجية البحث:

يستند البحث إلى ما يعرف بالدراسة النصية التي نستطيع من خلالها الدخول إلى النص، واستقراء مكوناته والتعرف إليها، في محاولة لكشف العلاقات الكامنة فيه ، والمشكلة له في المستويين اللغوي والاجتماعي، بما يفتح النص على فضائه الاجتماعي والإنساني .

أولاً : اللغة الشعرية :

يمثل الشعر نشاطاً لغوياً مركزاً، يقوم على إعادة النظر في الأنظمة اللغوية، وطرق تشكيلها، من خلال التقنيات الجديدة الطارئة على اللغة، ومن خلال طرائق التعبير البعيدة عن المباشرة والتقريرية، مما يمنح اللغة طاقة إيحائية عالية، ناتجة عن مظاهر الانحراف والانزياح اللغوي في بنية النص، دون أن يعني ذلك غياب هذا الفعل عن طبيعة الشاعر، ومدى حساسيته باتجاه اللغة أولاً، وباتجاه موضوعه الذي يتكلم عليه ثانياً . فالشاعر له طقسه الخاص في تناوله اللغة الشعرية، لأنها تمثل بالنسبة إليه طريقة في التفكير، وأسلوباً في الحياة ، خاصة إذا كان هذا الشاعر يعيش هاجس التغيير بوصفه سلوكاً حياتياً، تدفعه طاقة حدسية قوية للتعبير عن عوالم واقعية ونفسية وإيحائية، تجعل من اللغة والحداثة حركة مستمرة، تخطو نحو المستقبل، لتفتح فيه كوى وآفاقاً، تضيء عالم الشعر، وتكشف، من خلاله أسرار الوجود بامتلائه وتنوعه .

إن مهمة الشعر الفريدة، كما يقول (يوسف الخال): " هي النفاذ فيما وراء الظواهر المتناقضة المشوشة المبهمة، ليكشف بالحدس والرؤيا أسرار الوجود الحقيقي المليء بالانسجام والمعنى " [1] ، واللغة هي التي تسهم في كشف العالم، وتشكيله شعرياً، والتعرف إلى مفرداته ومحتواه، ثم هدمه وإعادة بنائه من جديد، من خلال هدم اللغة العادية، وإعادة بنائها، مما يخلق تناغماً وانسجاماً بين طبيعة اللغة الجديدة ، وطبيعة العالم الذي تقوم بنسجه .

يقول :

" **الأشجار تهجر الصمت وتبكي إلهها القديم**

لا أوراق على الجسد

العروق كساؤها الأوحد

وفي الحديقة ماء

الهواء يتأرجح في فراغ . الضياء يتأرجح في فراغ

الفراغ يتأرجح في فراغ " [2] .

لا يكون الشعر شعراً بحق ، وفقاً لحركة الحداثة ، إلا إذا دفعته رؤيا جديدة للحياة والكون والفن ، ومثل هذه الرؤيا تشكل إحدى محمولات اللغة المكثفة الساعية إلى فهم العالم واستيعابه ، من خلال تشكيلها القائم على خرق منطق العلاقات اللغوية المعروفة ، فإذا كانت اللغة ، وفقاً لحركة الحداثة صيرورة فاعلة ، يتأكد حضورها هنا ، من خلال أنسنتها ، فإن هذه السمة الحية تحول التعبير الشعري إلى كينونته الجديدة المتغيرة التي يهجس في فضائها ، بتوتره، وحساسيته وانفعالاته ، حتى يمسي هذا التعبير طاقة متجددة ، يخصب سياقات اللغة ، ويقاربها مع سياقات الكائن الإنساني المشدود إلى مستقبله بأوثق الصلات .

---

[1] **يوسف الخال ، *الحداثة في الشعر* ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1978 ، ص14 .**

[2] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، دار العودة ، بيروت ، ط2 ، 1979 ، ص281 .**

ولو عدنا إلى النص لوجدنا تجاوزاً في الفعل يمارسه التعبير الشعري من خلال الأفق الجديد الذي تعمل اللغة على رسمه ، ومن خلال هذا السلوك الذي تصوغ من خلاله عوالمها الأكثر اتساعاً .

إن العلاقة بين الأشجار والصمت، تعكس العلاقة بين اللغة والنظام / السكون والعطالة . فاللغة التي كانت تختبئ وراء التشكيلات البلاغية المتكهفة، خرجت من مكمنها، مستثمرة طاقاتها كلها ، لتشارك في خلق آفاق جديدة ، ومسارات جديدة. الأشجار لم تعد محايدة، تخضع لما هو كائن، لما تم رسمه لها ، يغلفها عالم مسكون بالخوف والتوجس، مسكون بالصمت، ومحاصر بقوى خفية تطبق عليه، إنها تخلع أقنعتها الموروثة ، وتغادر ظلالها المتعبة، لتطل بقامتها النظيفة، وحضورها الساطع ، ووعيها بذاتها، معلنة تجاوز الصمت، ونمو حالات التأهب والفعل في صميم الحياة. هكذا تعمل اللغة على إعادة إنتاج ذاتها، بما تمتلكه من وعي بطبيعتها وقدرتها على تجاوز ما هو كائن، إلى الممكن الذي لا يكف عن ممارسة فعل التحريض للوصول إليه، ثم تجاوزه، من هنا " تأتي لغة القصيدة الحديثة بأبعاد لغوية غير مألوفة ، تتناسب مع ما تطرحه القصيدة الحديثة، من تساؤلات ورؤى لم تكن معروفة من قبل " [1] .

إن كلاً من الهواء والضياء والفضاء يدخل في علاقة مع الآخر، وهذه العلاقة تمنح كل عنصر من هذه العناصر قدرة على الإيحاء ، وفاعلية للفيض والتجلي ، بوصفها العالم الجديد الذي تكافح اللغة للوصول إليه .

يقول في نص آخر :

" سأرعى غنمي عند الفجر ، وفي المساء أغني لها
أغنيات الرجوع
والآن دعيني أصرخ
جسدي يبتعد عني . يفارقني كغريب ، كفارس
ما رأيته من قبل . " [2]

تمتلك اللغة هنا صفات تخييلية ، تعمل على تحفيز وظيفة الشعر ، وعلى إطلاقها بصفتها طاقة متجددة ، معبرة عن قيم إيجابية ، تدفعها قوى حدسية ، تخترق عناصر التجربة الحسية للإنسان ، وقوى الشعور الحية المهيمنة ، وتدفعها لخلق عوالم جديدة ، تتسم بالعمق والدهشة .

إن الطقس الحار الذي قامت اللغة بتشكيله هنا ، يوحي بمدى الخصوبة التي يمكن للغة أن تخلقها في عالم الشعر . فالنص الشعري ، هنا ، لا يكف عن تشكيل مشاهد للحياة تتسم بالغنى والامتلاء ، من خلال هذا السلوك العفوي الذي تتواصل فيه الذات الإنسانية مع بعض مظاهر الحياة باستغراق وحميمية . إن الرعي ، هنا ، يمتلك قوة سحرية تتجاوز حدود الصورة البصرية التي من مهامها القبض على مكونات مشهد الرعي ، بعناصره كلها ، هذا المشهد الذي يمتلئ بحضور العناصر المتآلفة ، يكشف عن قدرة اللغة على التجلي في أشياء العالم ، وعلى إعطائه بعضاً من زخمها وفعاليتها .

إن عودة إلى النص تكشف ذلك ، فالرعي ، في أساسه ، هو حالة اعتيادية ، تمارس في ظروف مختلفة ، وهي، وإن كانت مثلت وظيفة رمزية مارسها عدد من أنبياء الله في ظروف متشابهة لتعليم البشر وتهذيب سلوكهم ، غير أن أهميتها تكمن في علاقة الراعي مع أغنامه ، ومع الزمن الذي يحتوي مثل تلك الحالة ، ومع الطبيعة التي

---

[1] **عبد الله أحمد مهنا ، *الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة* ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد التاسع عشر ، العدد الثالث 1988 ، ص26 .**

[2] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص271 .**

تستقبل هذا السلوك، بما يخلق تفاعلاً وتناغماً بين الأطراف التي تشارك في احتواء الفعل، ودفعه بإيجابية لتحقيق أغراضه .

في النص حركة عند الفجر ، وحركة عند المساء، وأودية، وهضاب مكسوة بالعشب ، وأغنام تروح وتجيء ، وهي ترعى ، وراعٍ تستغرقه الحالة الطقسية الخاصة، فتعلو أغانيه ، ثم تمتد في فسحة المكان ، وتردد صداها الهضاب والأودية، مما يغري بمواصلة الفعل ، ودفعه إلى تحسين ظروفه بلذة الممارسة الفاعلة التي تتجاوز سكونية الواقع، ونمطيته الباهتة، وهذا كله مرده إلى طبيعة اللغة الشعرية الجديدة التي تخبئ أسرارها في مفرداتها وتراكيبها وعلاقاتها ، متحفزة بكل قوة ، للإسهام في إعادة تشكيل العالم شعرياً بزخم وبفاعلية .

" إن العملية الإبداعية هي حركة مضادة للفناء والموت " [1] ، وهذا ما تقوم به لغة النص هنا .

إن أهم قيمة تسعى علاقات النص لإظهارها هي تلك الروح الحية التي تحلق في فضاء المكان، وتقوم بتحريض كل شيء فيه لممارسة الفعل ، وجعل التجربة التي تستغرقه إنسانية بامتياز .

ولعل حداثة (الخال) الشعرية لا تقف عند طرق تشكيل اللغة الجديدة، والنظر إليها بوصفها كائناً حياً، يمتلك حدساً قوياً ، ووعياً يموج بين الداخل والخارج ، فيعيد بناء اللغة التي تعيد بدورها بناء الوجود ، وإنما نجد (الخال) يقوم بمخالفة قواعد اللغة وأصولها ، واختراق نظامها النحوي ، منطلقاً من أن بنية اللغة لا يسيطر عليها النحو وحسب، بل الانفعال والتجربة، وقد تجلى ذلك باستخدام ما أطلق عليه (الخال) نفسه، اسم اللغة العربية الحديثة ، وهي اللغة التي يتكلم بها الكاتب أياً كان ، وليس اللغة التي يكتبها فحسب ، وهي عبارة عن مزيج من اللغة المحكية واللغة الفصيحة ؛ أي أنها تحكى وتكتب في الوقت نفسه، وبالتالي ، فهي تمثل تطويراً للغة الفصحى ، وتحتفظ بمقومات هذه اللغة ، باستثناء بعض القواعد النحوية القياسية التي تم تجاوزها .

وعودة إلى نصوص (الخال) الشعرية ، يمكن أن نلاحظ بجلاء ، كيف تجاوز هذا الشاعر حدود اللغة وثوابتها ، وكيف قام بتطويع قواعد الكتابة لتجربته ، حيث نجده يدخل (ال) على الفعل ، في قوله :

" **والخاطئ الأصيب بالعمى**
ليبصر الطريقا " [2]

وقوله :

" **ليت الوجوه الأدرناها**
استحالت ملجأ " [3]

غير أن القضية هنا ، لا تخص الأفعال وحدها ، وإنما نجد (ال) تدخل على الظروف أيضاً ، في قوله :

" **رفاقنا الوراء تكلم الجبال آثروا**
البقاء في سباتهم ونحن نؤثر السفر " [4]

---

[1] **د. عبد الحميد جيده ، *الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر*، مؤسسة نوفل، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1980 ، ص350 .**
[2] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص205 .**
[3] **المصدر نفسه ، ص231 .**
[4] **المصدر نفسه ، ص232 .**

وقوله :

" **رفاقنا الهناك آثروا**

الهجير والنقيق والضجر " [1]

وقوله :

" **غدا يعود سيدي**

يعود ، يا هلا !

من المجاهل الوراء قبرص الحبيبة

الوراء قرطاجنة يعود لي . " [2]

وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة قد درجت على يد عدد من شعراء المدرسة اللبنانية الحديثة، وأنها ظاهرة لافتة وجديدة وشاذة في الشعر العربي، تنم عن استخفاف بقواعد اللغة، واستهانة بالمقاييس اللغوية، كما تقول نازك الملائكة [3]، غير أن مثل هذا الاستخدام ظهر في اللغة العربية، وإن كان نادراً ، خاصة إذا أدركنا أن (ال) المستخدمة هنا، ليس المقصود فيها التعريف، وإنما هي اسم موصول، قد يدخل على الاسم والفعل والظرف، وبالتالي، يمكن للتشكيلات اللغوية السابقة أن تصاغ كما يلي :

" والخاطئ الذي أصيب بالعمى "

" ليت الوجوه التي أدرناها "

" رفاقنا الذين وراء تلكم الجبال "

" رفاقنا الذين هناك آثروا "

" ... من المجاهل التي وراء قبرص ... "

" التي وراء قرطاجنة ... "

وفي هذه الحال يمكن القول بأن الشاعر (الخال) أراد أن يعيد الحياة إلى ما كان غاب عن اللغة، ورحل، بعد أن أعطاه بعضاً من أصالته وموهبته الإبداعية، وهذا يشكل موقفاً حداثياً فاعلاً، يمارسه الشاعر بجدارة واقتدار. فالعلاقة الحميمة بين الشاعر وبين ألفاظه، تجعل من الشاعر ذلك المبدع الذي يرصد اللغة ، ليس من خلال قاموسها ونظامها النحوي المغلق، وإنما من خلال تداولها بين الناس، فيعيد إليها دفئها وألقها الجديدين. وهذا يمكن أن نجده في مواضع أخرى من نصوصه الشعرية، مثل استخدامه همزة القطع في (ال) التعريف، بديلاً من همزة الوصل ، في قوله :

" **ألليل جالس معي** "

" **العالم استراح في قصيدتي** " [4]

كما نراه يستخدم الصفة بديلاً من الموصوف ، ولا سيما في النداء ، في مثل قوله :

" **يا بحرنا الحبيب ، يا**

القريب كالجفون من عيوننا " [1]

---

[1] المصدر السابق ، ص234 .

[2] المصدر نفسه ، ص236 .

[3] نازك الملائكة ، *قضايا الشعر المعاصر* ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1974 ، ص317-318 .

[4] يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص324-325 .

وهذا التشكيل ينبغي أن يكون :

" يا أيها القريب كالجفون .... "

حيث تم حذف المنادى (أي) والاستعاضة عنه بصفته .

إن مثل هذه التشكيلات اللغوية تعكس هاجس (الخال) إلى المغامرة والاختلاف، ليس بصفتها غاية تستغرقه، وإنما بصفتها ممارسة شعرية خلاقة، تسعى إلى اكتشاف الأسرار التي يمكن للغة أن تكتنزها، وتفصح عنها . إن " اللغة هي مزيج من المادة التي سيصنع منها نظام اللغة ، ومن المادة التي تترسب في المتبقي ، والمتبقي يمارس تخريبه ضد مجموعة من القوانين النحوية ، فإذا كان لا بد من أن يكون هناك نقض لشيء ، فلا بد أن تكون هناك في صلب اللغة مجموعة من القواعد النحوية التي يتم التمرد عليها " [2] . وهذا ما سعت لغة (الخال) إلى ممارسته والقيام به .

ثانياً : الصورة الشعرية :

تعد الصورة الشعرية من أهم المكونات الأساسية في بناء النص الشعري الحديث ، بل هي الأهم بامتياز، ذلك أن النص الشعري ، في جوهره تعبير صوري ، تتضافر مكوناته : اللغة والخيال والإيقاع والرمز والحلم لنسج الصورة ، وجعلها أكثر توهجاً وحياة ، من خلال امتلاكها قدرة فائقة على تحويل مشاهد الحياة إلى تجارب إنسانية ، غاية في الثراء والتنوع . وإذا نحن أدركنا أن الصورة تتشكل أساساً من علاقة تنشأ بين المكونات الذهنية والقيم النفسية والروحية التي تتفاعل في ذات الشاعر، وبين مظاهر الحياة المختلفة، فإننا نرى أن مثل هذه العلاقة تتصل بالحياة ، وتنفصل عنها في الوقت ذاته ، تتصل بها من حيث مفرداتها ومكوناتها الأساسية ، وتنفصل عنها من حيث عدم مطابقتها لعناصرها ومشاهدها ، ولذلك فإن تشكلها يتم وفقاً لجدلية فاعلة بين الشاعر واللغة من جهة ، وبين الوجود من جهة ثانية . فالوجود من مهمته إعطاء الصورة مفرداته ومظاهره المادية المختلفة، والشاعر يدخل هذه المظاهر إلى خافيته ، حيث يعيد تشكيلها وفقاً لهواجسه وانفعالاته ورؤاه ، ويدفعها معبأة بالدلالات العامة والشخصية. فالذات الشاعرة ، إذن ، هي مركز الفعل هنا ، وهي التي تقوم بصهر المادي الخارجي، والمعنوي الداخلي، من خلال وعيها بالعالم أولاً ، ومن خلالها وعيها بذاتها ثانياً ، حيث تكثف هذا الوعي ، وتقوم بمقاربة فجواته ، لتنشئ لنا صورة حية تعكس عمق التجربة الإنسانية وحيويتها .

إن (يوسف الخال) يمتلك مثل هذه الذات الشاعرة ، ويمتلك شخصية شعرية متميزة، استطاعت أن تعبر عن تجربتها في الحياة بنشاط وحيوية وتجاوز لما هو كائن ومألوف ، فأبدع لنا صوراً شعرية مكثفة ، عكست وعياً استثنائياً ، بما امتلكته من طاقة حية متوقدة ، وقدرة فاعلة على رصد التجارب الحياتية والقبض على جوهرها ، وكشف أسرارها . يقول :

" ونحن نجمع الغلال تارة
وتارة نعيد
ذكرى وقوف غيمة هنا ،
هناك في البعيد
نزيحها

---

[1] المصدر نفسه ، ص232 .

[2] **جان جاك لوسركل ، *عنف اللغة* ، ترجمة وتقديم: د. محمد بدوي ، مراجعة سعيد مصلوح ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص234 ، 243-244 .**

نحكي لها حكاية الفصول كلّها
لكنها في عروقنا ،
نظنها تضيع
وهي التي تلوح فجأة
في شعره تبيض ها هنا
أو شفة تجوع " [1]

ترتبط الصورة في هذا السياق بوعي الشاعر لواقعه الذي يعيش فيه ، حيث تقوم بالتعبير عن مجمل الحقائق النفسية والشعورية التي تومض بين الحين والآخر في خافيته ، وتفصح عن ذاتها من خلال تأمل عميق لمواقف حياتية، تتصل بشكل مباشر بسيرورة الكائن الحي . ذلك أن الشاعر في لحظات تأمله مسيرة الوجود ، واستغراقه في هذا التأمل، تتكشف له حقيقة هذه المسيرة ، ويدرك عندها كيف أن الزمن يجري ، فيسحب في جريانه الكائن الإنساني ، ليأخذه بعيداً عن حيويته ، ويعمل على إتلاف عناصرها ، وهي ما تزال تعمل لتوكيد ذاتها ، وتوكيد وجودها في عالم الواقع بكل مكوناته . وعودة إلى مفردات الصورة تبين كيف أن هذه المفردات تتضافر لرسم الصورة الكلية التي تمت الإشارة إليها .

تبدأ الصورة هنا بذكر الغلال التي يتم قطافها ، والتي كان الإنسان قد سعى بنشاطه وإمكانياته ووعيه ببناء واقعه ومستقبله لإحياء عناصر الخصوبة في الحياة، من خلال استنبات هذه المواسم الطيبة المباركة . ولعل صيغة الجمع التي تعطيها دلالة الفعل المضارع المتكرر (نجمع، نعيد، نزيح ، نحكي ، نظن) تؤكد على المناخ التفاعلي الذي تشترك الكائنات الإنسانية في صنعه ، فالشاعر يتحدث هنا عن واقع تسهم الجماعة وليس الفرد في تشكيله ، وهو واقع يتفاعل فيه الطبيعي مع الإنساني ، والخارجي مع الداخلي، والحيادي الساكن مع المتحرك . إن دلالة الأفعال تنهض بصفتها دلالة معممة على عناصر الوجود ومكوناته، وهنا تكمن أهمية الصورة بكونها تفاعل بين هذه العناصر، بعد أن تحررها من حياديتها ، لتدخلها في إطار النشاط الإنساني المدرك لضرورة تماسك تلك العناصر وائتلافها .

إن العلاقة بين الغلال والإنسان والغيمة والفصول ، هي علاقة أصيلة ، فالتلال تحمل خصائص الخصوبة، وتشكل هدفاً يسعى الإنسان لتحصيله كل عام في مواجهة حالات القحط ، والغيمة هنا رمز خصوبة أيضاً ، لأنها تعطي الغلال ألقها، وتجعل منها مصدر خير وسعادة للجياع من خلال إروائها الأرض التي تستنبت تلك الغلال، والفصول معطى زماني، يعيد ترتيب المكان وصياغته بمشاركة الإنسان أو دون مشاركته ، والحكايات معطى إنساني يتصل بالذاكرة التي تتفاعل مع عناصر الوجود، وتعمل على استحضارها وأنسنتها، وجعل علاقة الإنسان بمحيطه أكثر دفئاً وحميمية .

إن التجربة المعمقة التي شكلت علامة بارزة في مسيرة (الخال) الشعرية، استطاعت أن تراكم في مخزونها معطيات الواقع، وتدرك خصائصها، مما يعطيها تميزاً وفاعلية ، ويعطي الشاعرة فرادة في الإبداع والتجاوز ، وهما من أبرز سمات الحداثة ، كما يؤكد (الخال) نفسه، بقوله : " والحداثة تفترض شخصية شعرية جديدة ذات تجربة معاصرة ، وهذه التجربة فريدة تعرب عن ذاتها في المضمون والشكل معاً " [2] . فالصورة ، هنا ترصد مسيرة حياتية غنية ومتنوعة، تشكل منجماً للدلالات التي لم تنته بمفاعلة المكونات التي تم ذكرها ، وإنما تظل تمارس تعزيز قدراتها وفعالياتها من

[1] يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص322-323 .

[2] يوسف الخال ، *الحداثة في الشعر* ، ص15 .

خلال تلك الحركة التي كشفت الهدف النهائي لعوالم الخصوبة والائتلاف السابقة ، الذي جسده هرم الكائن الإنساني وقواه المادية، وصولاً إلى عطالته، وهذه هي المفارقة التي عملت الصورة في نص (الخال) على القبض عليها ورسمها .

إن عناصر النص تنتمي إلى حقلين متمايزين ، الأول منهما يراكم مفردات الخصوبة والألق والاستغراق في الحياة، والثاني يفصح عن حالة مغايرة ، تجعل من تلك المفردات أقل حيوية ، وأقل تواصلاً مع مفرداتها في الوجود ، وتأتي الصورة لتطل علينا من خلال المفاعلة بين الحقلين ، والتي ينتج عنها حالة جديدة ، تستند إلى معرفة حقيقية تقوم بالقبض على جوهر العلاقات بين الإنسان ، وبين مكونات الوجود ، والتي تؤكد حركة الفصول وحركة المواسم وحركة الكائنات الإنسانية ، بصفتها حركات متغيرة ، تطل من جهة قوية فاعلة ومشرقة ، وتغيب من الجهة الأخرى ، ضعيفة ، باهتة ، ومعطلة .

فإذا كانت صورة (الخال) هنا ، قد قدمت لنا مشهداً وجودياً من خلال رصدها سيرورة الإنسان في الحياة ، ومشاركته في صنع شروط وجودها ، استطعنا أن نتمثل مكوناتها وعلاقاتها، وأن نعي دلالاتها بقليل من الجهد، فإن صورة أخرى للشاعر تطل علينا ، غائمة ، ملتبسة ، تتداخل فيها العناصر ، وتتمايز فيها المواقف ، وتبدو كأنها تريد أن تستعصي على الفهم ، وتهرب من التحديد ، يقول :

" سأجرع الكأس ، والكأس فارغة . سأبتسم وفمي
بلا شفاه . سأحصد حقلاً زرعته في الظلمة
أنا الليل واللصوص ينتظرونني
سأغرس زجاجة على الرصيف وأحسبها امرأة
قليلاً قليلاً من الدفء . جسدي بارد كاللعنة " [1]

إذا عرفنا أن "تصدع الأنا مظهر من مظاهر التصدع في الصورة المعرفية التي هي انعكاس العالم في الوعي، وهي التمثل الإنساني للعالم وعلاقاته وحركته وموقع الإنسان منه" [2]، فإننا ندرك أن الصورة التي تتشظى في النص المشار إليه، تقوم بتحطيم الروابط الطبيعية بين مكوناتها، فتمسي الصورة هنا أقرب إلى الحلم الذي يبني من خلال الجمع بين عناصر ومكونات يحكمها التداعي وعدم الانسجام، وبالتالي، تدفع بالدارس الذي يسعى لفهم الصورة لمقاربتها بالحلم، وتصبح الطريق الواصلة لفهم الصورة هي نفسها الطريق المؤدية لفهم الحلم، ومعرفة طبيعة عمله، وطرائق تشكله، لأن عناصر الصورة هنا شبيهة بعناصر الحلم، والفجوات التي تفصل هذه العناصر، وتفككها، وتباعد بين دلالاتها، يمكن مقاربتها بسهولة مع عناصر الحلم. وطالما أن الصورة هنا هي بوح يومض في وعي الشاعر، ولا وعيه، ويتداعى على هيئة تشكيلات لغوية غير متجانسة، فإن العمل على ردم هذه الفجوات يحتاج إلى مزيد من الدقة والتأمل .

إن الشاعر الذي يعمل على دفع قواه الفاعلة باتجاه كل شيء، نجده يتداعى على مختلف الاتجاهات، ويحاول أن يبني من خلال هذا التداعي مشاهد مبعثرة ومتنوعة تبدو كأنها تناقض بعضها، إذا نظرنا إليها من الخارج، غير أن الداخل يشير إلى قضية مركزية تخص وعي الشاعر الفرد إزاء واقعه المفكك والمهزوم والمتشظي، وتأتي الصورة هنا لتقوم بإضاءة هذا الواقع ، فأخذت سماته وخصائصه ، بعد أن منحها الشاعر طاقاته وأفرغ فيها قواه وانفعالاته ورغباته.

---

[1] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص283-284 .**

[2] **خالدة سعيد ، *الملامح الفكرية للحداثة* ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثالث 1984 ، ص29 .**

وعودة إلى النص نجد كيف أن (أنا) الشاعر تتوزع على مساحة اللغة (الصورة) كما كانت توزعت على مساحة الوجود، في قوله : " سأجرع ....، سأبتسم وفمي ....، سأحصد حقلاً ....، زرعته .... ، أنا الليل .... ، ينتظرونني ، سأغرس ... ، أحسبها .... ، جسدي .... " ، حيث تطل (أنا) الشاعر في عشرة مواضع في النص، وتبدو في ظهورها محكومة بالاختلاف والتناقض من خلال سلوكها الذي تمارسه ، أو الذي يمكن أن تمارسه ، وهو سلوك يتمظهر في حركات تتميز بالانتماء إلى عالم اللاوعي من خلال العبث بكل شيء، وجعل اللاوعي واللانظام واللامنطق حركات تسود وتفعل ما تشاء ، ولذلك تبدو المقاربة بين أطراف عناصر الصورة محفوفة بكثير من الصعوبات والمخاطر " يجرع الكأس وهي فارغة / يبتسم وليس له شفاه تصنع الابتسامة / يزرع ويحصد في الظلام ، وهذا يخالف نواميس الكون / هو رمز للخوف والترقب وغياب الرؤية ، وينتظر اللصوص لتسطو عليه / زجاجته هي الأنثى التي يسعى إليها ، وهذا دليل على اللاوضوح واللاتوازن " مما يشكل وجهاً آخر من وجوه بناء الصورة ، بالقياس إلى ما كنا رأيناه في بناء الصورة السابقة . إن الصورة بتفاصيلها قد تكون ناتجة عن افتقاد الشاعر عناصر الأمان والدفء ، لأنه كائن مطرود من عالم الإنسان وقواه الفاعلة إلى عالم أرقط ، مخادع ، مشوه ، غير إنساني . إن الوجود الذي سعى الشاعر للتعبير عنه ، قد كشف عن ذاته من خلال اللغة " وهذا يعني أن اللغة ليست مجرد آلة تواصل وأداة استكشاف وفهم تكمن وظيفتها في إشاعة معانٍ ظاهرة أصلاً موجودة في الأفكار ، بل هي تقوم بوظيفة أسمى من ذلك كثيراً ، وهي الكشف عن الوجود ، حيث إن تسمية الكائنات ترشحها للوجود من خارج وجودها " [1] .

فاللغة ، وفقاً لذلك ، هي مسكن الشاعر الذي يطل من خلاله على العالم ، وفي إطلالته تلك يعاين تمظهراته ومكامن وجودها، يتفاعل مع هذه التمظهرات التي تمثل ذاته جزءاً منها ، يتصل بها ، يستدعي ما بَطُنَ منها ، يضيء مجاهيلها ، يحاورها ، يفاعلها مع اللغة ، مع سيمياء اللغة ، ليجعلها تتقمص العالم ، تنطق بروحه ، وتفصح عن جوهره ، محاولة جمع شتاته ، والتعبير عن أزماته وتناقضاته .

إن استخدام الشاعر التداعي في تكوين الصورة ، يجعل من اللغة ، بكلماتها وحروفها تستنطق الواقع بتنوعه واختلافه ، وتتبادل فاعلية التكوين معه ، فتتمفصل مكوناتها مع مكوناته وتتفاعل ، فتتحول إلى كيمياء تجمع بين وجودين ، وتصهرهما ، هما وجود الداخل / أنا الشاعر ، بمكوناتها ومخزوناتها المعرفية ، ووجود الخارج / الواقع / المجتمع بآلياته وقواه المتصارعة . إن " كل شيء قابل للمقارنة بكل شيء ، وكل شيء يجد صداه وصوابه ، وشبيهه ونقيضه وصيرورته في كل مكان " [2] وهذا ما سعت الصورة هنا إلى استقطابه والإفصاح عنه .

فإذا كان نص (الخال) هذا ، قد تحول إلى حشد من الصور المفارقة التي جمعت المتناقضات ، وعبرت عن تشتت الواقع ، وتشتت الوعي الشخصي الذي يعكسه ، فإن صورة أخرى للشاعر تظهر واقعاً من العدم ، وعطالة في الحياة ، في أهم مظهر من مظاهرها الإنسانية ، وهو البيت بوصفه يشكل غطاء الإنسان ومنطلق وجوده . يقول :

" دارتي السوداء ملأى بالعظام
عافها نور النهار ،
من يواريها الترابا ؟
علّها تبعث يوماً
تدفع الصخرة عنها

---

[1] **جان جاك لوسركل ، *عنف اللغة* ، ترجمة د. محمد بدوي ، ص218 .**

[2] **د. عبد الحميد جيده ، *الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر* ، ص130 .**

آه كانت كائناً يملأ جفنيه الظلام ،
أبكماً * كالجدَث المغلق ، مشلولاً ، كسيحاً
راح يستعطي على عرض الطريق . " [1]

تكشف الصورة هنا عن واقع مريض ، استقال من الحياة بعد أن عجز عن تجسيد مقوماتها ، وبعد أن صاغت هذه المقومات دروباً أخرى بعيدة عن هذا الواقع ، وتقدم تشكيلات النص اللغوية صورة مشوهة للمكان / البيت ، الذي يرمز إلى الأمن والاستقرار والحماية ، وتكوين البشر ، ودفعهم لممارسة سلوكهم اليومي المتنامي .

إن الدار بوصفها تشغل حيزاً في المكان ، تضم في داخلها كائنات إنسانية ، تتسم بالتجدد والحيوية ، وتطل على الحياة كل نهار لتضيء معالمها ، وتحقق فيها شروطها الاجتماعية الفاعلة ، يدفعها هاجس الرغبة إلى التواصل والانسجام، والتوق إلى التجدد وتخصيب الحياة ، نجدها في نص (الخال) قد تخلت عن ممارسة هذه الوظيفة ، وأزالت عنها صفة الفاعلية ، واستسلمت للعطالة والعجز ، وانحنت للخراب الذي صدع أركانها ، وأطفأ فيها نور الحياة، ثم تركها جيفة ممددة تستجدي من يقوم بطمرها .

إننا من خلال المقاربة بين الصورة الشعرية التي رصدت الخصائص الجديدة للدار / البيت ، وأفصحت عنها ، وبين الواقع بصفته موطن الدار وحاضنه، مثلما الدار حاضنة البشر / الإنسان ، نجد أن هذا الواقع / المجتمع / الوطن، يختزن خصائص تلك الصورة، بصفتها إعادة صياغة له ، تقوم بتحديد ملامحه واستبطانه ، وتحويله إلى تجربة شعرية . فالواقع الذي يتحدث عنه الشاعر محكوم عليه بالهزيمة والاستسلام ، وكلاهما مقدمة للنكوص والموت والانسحاب من الحياة .

ثالثاً : الرؤيا الشعرية :

مما لا شك فيه أن اللغة الشعرية لم يعد ينظر إليها بصفتها قالباً للأفكار، أو وعاء لها، وإنما صارت هي الفكر ذاته، بكل ما يحمله من رؤى وطموحات ، يتغلغل الشاعر في حروفها وكلماتها وتشكيلاتها المختلفة ، ويطل من خلالها على العالم بمحمولاته وفضاءاته وسيرورته ، يكشفه ، يضيئه ، يتفاعل معه ، يأخذ منه ويعطيه ، يأخذ منه تفاصيله وعلاقاته ، ويعطيه تصوراته وهواجسه ورؤاه التي تسري في شعره سريان الماء في النسغ الحي ، وبهذا تصبح لغة الشعر كشفاً ، تصبح رؤيا فاعلة ، تطل على الوجود ، وتتبصر في محتوياته ، حتى تتكشف لها قيمه وأسراره الكامنة ، عندئذ تمارس سلطتها عليه ، فتقوم بتوجيهه ورسم مساراته ، تصوب هذه المسارات ، وتؤسس لها عالماً آخر جديداً ، تقيمه على أنقاض الأول وتجعله بديلاً منه .

من هنا تصبح الرؤيا هي الوعي الجديد الاستثنائي الذي يأخذ على كاهله عبء التواصل مع العالم لكشفه ، ثم لمواجهته، بما تمتلك من قدرة على استيعاب مقومات الفعل ودفعه لإعادة صياغة هذا العالم ، وجعل هذه الصياغة مستمرة للبحث والتطوير والتجاوز .

وربما كان مفهوم الرؤيا من أبرز المفاهيم التي استندت إليها حركة الحداثة في الشعر العربي الحديث ، إذ نظر الشعراء الحداثيون إلى الشعر على أنه رؤيا ، تقوم وظيفته الأساسية على التبصر في الأشياء ، وسبر أغوار الحياة ، والقبض على الأساسي والجوهري فيها ، وليس وصف الواقع ومحاكاة تفاصيله وجزئياته ، ولذلك نظر أدونيس إليها

---

[1] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص199 .**

***وردت هكذا في النص ، والصواب (أبكمَ) ممنوعة من الصرف ، صفة على وزن أفعل .**

بوصفها " قفزة خارج المفهومات السائدة ... (وهي) تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها " [1] . وطالما أنها كذلك فهي تشكل جوهر الإبداع ، لأنها تبحث دائماً خارج المتداول والمألوف والمتعارف عليه ، لتمعن إيغالاً في روح الواقع وأعماقه القصية ، تستنبت علاقات جديدة للذات الشاعرة مع مكونات هذا الواقع ، وتستحضر تجارب إنسانية تعج بالحياة ، لأن " الشاعر يرصد العالم كله وينبئ بتحولاته ، ويضيء هذه التحولات " [2] .

وقد وعى (يوسف الخال) هذه القضية ، وأدرك أن الشعر خروج على الماضي ، وهو خروج لا يستند إلى الشكل فقط ، وإنما يستند إلى الكنه والجوهر ، لذلك امتدت تجربته إلى الأزمنة كلها ، تتبصر في مكوناتها ومخزوناتها، وتصوغ من خلال ذلك توق الذات إلى إعادة بناء تلك المكونات ورسم مساراتها . يقول :

" أيها البحر ، يا ذراعاً مددناها
إلى الله ، ردنا لك ، دعنا
نسترد الحياة من نور عينيك
ودعنا نعود ، نرخي مع الريح
شراعاتنا ، نروح ونغدو
حاملين السماء للأرض دمعاً
ودماء جديدة
هذه الأرض
مواتاً أمست ، وأمست عروقاً
من حديد " [3]

إذا كانت الرؤيا تنهض على تقديم صورة جديدة للحياة ، باعثها موقف ناقد ، وإحساس بإعادة تخصيب مقومات هذه الحياة ، فإن نص (الخال) يسعى للإحاطة بهذا الموقف ، إذ البحر يمثل بالنسبة للشاعر خزاناً من الحضارات أشرقت ، وأمعنت في إشراقها في أصقاع الأرض ، خاصة إذا نحن تذكرنا حضارة الفينيقيين التي ينتمي الشاعر إليها ، حضارة الأبجدية والسلام والمحبة ، عندما كان البحر الأبيض المتوسط عبارة عن بحيرة فينيقية ؛ أي بحيرة سورية ، تنهض على شواطئها الشمالية والجنوبية مراكز للتجارة وللإشعاع الحضاري والإنساني ، تمتد حتى شواطئ الأطلسي غرباً ، وفي الداخل تمتد جنوباً وشرقاً لتتفاعل مع حضارات كنعان وبابل وآشور وسومر، لتخلق حالة فريدة من التواصل الإنساني الخلاق، أضاءت من خلاله الأمكنة التي عبرتها أو حلت فيها ، وأضاءت روح ساكنيها .

إن الشاعر الذي وعى هذه المرحلة التاريخية ، بألقها وخصوبتها ، كان باغته إحساس آخر ، يؤكد جدب الواقع الحاضر ، وعقم مكوناته ، وغياب مظاهر الروح والحياة عنها ، في قوله : " هذه الأرض مواتاً أمست ، وأمست عروقاً من حديد " . أمام هذا اليباس الذي تملّك مفاصل الواقع الذي ينتمي الشاعر إليه ، وأتلف في محتوياته مظاهر الحياة ، بل جعل هذه المحتويات عنواناً للعقم وجفاف الروح ، كان يسعى الشاعر لمواجهة هذا الواقع بتلك الرؤيا الحاضنة لحضارته الغابرة التي تمتلئ بالمجد والبركات ، يريد أن يستنهض من خلالها فجراً جديداً ، ينمو فيه شعور جديد ، يعمم طقوس الخلاص واستعادة مقومات الحضارة والحياة .

[1] **أدونيس ، *زمن الشعر* ، دار العودة ، بيروت ، ط2 ، 1978 ، ص9 .**
[2] **المرجع نفسه ، ص175 .**
[3] **يوسف الخال ، *الأعمال الشعرية الكاملة* ، ص230 .**

إن هذه الرؤيا ، على الرغم من كونها تنحو منحى غيبياً ، يتمثل بالتوجه إلى الله ، والدعاء له ، وإلى البحر ، لإيقاظ هذه الأجساد التي استقالت من الحياة ، ودفعها لإعادة بناء ذاتها وبناء حضارتها ، فإن مثل هذا التوجه يحمل في داخله الإشارة إلى جوهر تلك الحضارة التي يسعى إلى تعيينها وتمثلها ، وهو جوهر يقارب بين الله ، واهب النعم والخير والسلام والمحبة ، وبين الإنسان ناسج هذه الحضارة ، من خلال استيعاب تلك القيم ، ونشرها في العالم .

إننا نجد هذه الرؤيا التي أفصح النص عنها هنا، تنتشر في مساحة نصوصه الشعرية، وتظل بين الحين والآخر، معلنة عن ذاتها ، تذكر بحضارة الماضي ، وتدفع إلى الأخذ بأسباب نهوضها ، مما يجعلها تشكل هاجساً ملحاً ينبض في وجدانه ، ويستشرف من خلاله بشارات الأمل والخلاص التي تحملها تلك الحضارة .

فإذا كانت الرؤيا تبصراً في الحياة، يكشف الشاعر من خلالها ما يعتري العالم وما يمكن أن يعتريه، دون أن يخرج هذا الكشف عن هواجسه ورغباته الدفينة ، فإن (الخال) يستخدم رؤياه في تقديم وقائع وظروف أخرى مختلفة، وفي خلق مسارات تتوضع في فضاءاتها مواقف وقيم ومعارف تعكس سلوك البشر ، وتصور واقعهم ، وتفصح عما ينتظرونه . يقول :

" الأيام الأخيرة على الأبواب ، ساعاتها على رؤوس الأصابع
الهزيمة لواء مرفوع ، وأوجاع المخاض بحار
تحترق
أعطنا علامة يا رب " [1]

يكشف النص عن نبوءة تشير إلى سلوك طقوسي مفعم بإشارات تنتمي إلى عالم الهزيمة والخراب والموت ، وتشير الجمل الاسمية إلى انسحاب قيم هذا العالم ومعطياته الإيجابية من ممارسة الفعل ، انتظاراً لخرابه الكبير ، فالزمن يظهر تراجعاً في قدراته عن إمكانية إعادة استتباب عناصر الحياة ، وهذا التراجع عن السير وإضاءة الحياة ليس ناتجاً عن عطالة في طبيعة الزمن، بل ناتج عن حضور مقومات العجز والاستسلام وانتشارها ، وامتلاء المكان بها ، مما أوقف حركة الزمن ، وأدى إلى تراجعها وانحسارها . فلقد نفد الزمان أو كاد ، تحمل بقاياه على الأكف ، وترفع عالياً على رؤوس الأصابع كي لا يبتلعها طوفان الهزيمة ، ويتلفها دمار الحرائق ، في محاولة يائسة لإنقاذ مسافة من زمن ، يمكن من خلالها ترميم الحياة ، وهذه الرغبة في الترميم وتفعيل الفعل نلمسها في السطر الأخير من النص ، الذي يلمح إلى رؤيا مناهضة للرؤيا الأولى ، وقد تلامس الرؤيا التي كنا وجدناها في النص السابق ، وتدفع باتجاه تمثل فعلها ، وهي وإن كانت رؤيا دينية تتوجه إلى الله ، وتتضرع إليه بالتوسل والدعاء ، عساه يسرع في إعطاء إشارة للبشر تدفعهم للنهوض من سباتهم والوقوف في مواجهة الطوفان ، بعد أن عجز هؤلاء عن إعطاء مثل هذه الإشارة ، فإن هذه الرؤيا تشكل رغبة دفينة ، استبطنت روح الشاعر ووجدانه ، ثم شعت في فضائه بهاء ، يلمح من خلاله فجر الخلاص يطل من الأعالي لتطهير الإنسان من أدرانه وخطاياه ، وإعادة حركة الحياة إلى مسارها الطبيعي .

إن الشاعر (الخال) وعى بإحساسه شروط واقعه ، ورأى أن فهم العالم واستيعابه إنما يكون بالتفاعل معه والغوص في أعماقه، ومعايشة قيمه الروحية والعقلية، وتوجيه هذه القيم من خلال رؤيا فاعلة ، دون أن يعني ذلك اقتصار هذه الرؤى على كشف مكامن علاقات البشر الخفية ، وإنما نجدها تمتد إلى عالم الطبيعة الذي يشكل حاضن البشر ، ومكاناً لممارسة طقوسهم المختلفة ، يكشف معطياته ، ويستبطن أسرار حركاته وقوانينه . يقول :

---

[1] المصدر السابق ، ص292 .

" في أول الشتاء كنت ناقماً
على الخريف ! غزّ مخلباً هنا
هناك دون رأفةٍ
بأصغر الغصون
قيل ليَ اطمئن هذه
علامة الفصول . بعد دورة
يجيؤك الشتاء حاملاً
إلى الجذور دمعة الحياة . ربما
يكون قاسياً على الجذوع . بعضها
تظنه انتهى ، بل إن بعضها
يغيب بغتة
وفي الربيع ، حين يستجير
آخر التخوم ، يفتح الثرى
عروق دمه الجديد " [1]

تقدم رؤيا النص هنا مشهداً متكاملاً لعمل الطبيعة ، ولقدرتها على تحويل مظاهر السلب التي يمكن أن تعتريها بشكل آني ومؤقت إلى مظاهر أخرى ، تضج بالحركة والحياة ، كما تكشف هذه الرؤيا عن جدلية تقوم على المفاعلة بين مقومات الزمان ومقومات المكان ، بوصفهما مكونين أساسيين من مكونات الطبيعة ، وهذه المفاعلة هي التي تعطي العالم جدواه ، وتمنحه مزيداً من العمق والخصوبة في مواجهة حالات القحط والاعتلال والموت .

ولعل نظرة عامة على حركة النص تبين وبوضوح الخواص الإحيائية التي تعمل حركة الزمان على غرسها في المكان ، وعلى إعطائها دفقها وجدتها ، كأن توازناً كونياً أطل بين طرفين ، استدعى أحدهما الآخر في مسعى توافقي ، تبعث من خلاله الحياة ، وتتكشف أسرارها . ومثل هذا الفعل تؤكده تجربة الشاعر المعمقة التي اختزنت بين ثناياها جوهر تلك الحركات الكونية، وها هي تقدمها الآن من خلال اللغة ، بوصفها تجليات تلك التجربة وتجسيداً لأبرز محمولاتها. " إن تجربة الشاعر تتنزل عليه بنوع من التجلي المفاجئ الذي يغدو فيه الموضوع الملاحظ متحولاً ومشحوناً بمغزى غامض في لحظة التجلي تلك ، يندمج الباطن بالظاهر ، الحس بالفكر ، المادة بالروح ، المعرفة بالحدس . إن الحياة الخفية المستترة الغامضة خلال التجربة تتجلى فجأة في العالم المرئي ومن خلاله ، فتتكشف أسرار الحياة والتاريخ والروح لعين الرائي " [2] .

إن علاقة الفصول بعضها مع بعض قائمة منذ قيام الكون ، والكائن البشري بصفته محكوماً بمنطق هذه العلاقة وتحولاتها، فإنه يكتسب من جراء ذلك قوى نفسية ومعرفية ، تنمو في داخله عبر سيرورته الاجتماعية، فتسهم في تشكيل وعيه وتنظيم سلوكه وتوجيهه ، ليصبح إنساناً فاعلاً في تلك العلاقة، بما يمتلك من قدرة على تمثلها والتفاعل معها، والتوازن مع معطياتها ، خالقاً فيها مساراته، ومحدداً مواقفه، وكاشفاً بين الحين والآخر ما تنطوي عليه من خفايا وأسرار، يقدمها من خلال اللغة التي تعد الأساس في كشف الوجود ومعرفته. من هنا يصبح الإنسان أهم مكونات

---

[1] **المصدر السابق ، ص236-237 .**

[2] **محي الدين صبحي ، *الرؤيا في شعر البياتي* ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1986 ، ص40 .**

الوجود ، لأنه الكائن الوحيد الذي يمتلك الوعي به ، ويستطيع من خلال وعيه هذا اكتشاف حركة هذا الوجود ، وتطوير هذا الاكتشاف من خلال تطوير مستويات وعيه بنمو مخزوناته المعرفية ، حيث تشكل اللغة جوهر تلك المخزونات. إن " الإنسان يعيش في فضاء مفتوح أو في مجال من الفهم المشترك تكونه اللغة، اللغة هي عالمه .... (و) لولا اللغة لما وجد الإنسان العالم " [1] . فالعالم موجود ، ووجوده مستقل عن الإنسان ، غير أن معرفة هذا العالم لا تقوم إلا من خلال وعي الإنسان به ، ومن خلال اللغة التي تتماهى معه ، فتصف حدوده ، وتكشف حركاته ، ولذلك وجدنا الشاعر يقدم لنا في نصه هذا رؤيا تفصح عن معرفة أولية بهذا العالم ، ثم ما تلبث هذه المعرفة أن تنمو وتتسع حتى تتملكه ، وفي تملكها هذا تصوغ محتواه ، حيث يطل علينا ببهائه وألقه وتحولاته من خلال حركات الفصول الكونية التي يكشف كل منها عن حضور أصيل ، يمارس طقوسه في الخلق ، وينجز خياراته الوجودية الفاعلة ، ليستكمل ولادة الحياة .

الخاتمة :

لقد رأينا من خلال رصد أبرز ملامح الحداثة في شعر (يوسف الخال) كيف أن الحداثة شكلت هاجساً لديه، فسعى إلى التجديد وتطوير بنية الشعر العربي ، شكلاً ومضموناً . فقد حظيت اللغة الشعرية باهتمام لافت منه ، فابتعد في تناوله لها عن المباشرة والتقريرية ، وعمل على خلق فضاءات جديدة ، فتح من خلالها اللغة على عوالم أكثر عمقاً وأكثر تجدداً ، فضلاً عن محاولاته الهادفة إلى المغامرة في تناول اللغة خارج قوانينها النحوية ، معبراً في ذلك عن قدراتها الخلاقة التي تفلت بين الحين والآخر من أطر التقعيد التي قيدت حركتها .

كما رأينا كيف أن الصورة الشعرية في تجربة (الخال) عبرت عن وعي استثنائي اكتسبت من خلاله طاقات حية، عززت بها قدراتها على التماهي مع مقومات الوجودين الداخلي والخارجي ، بما يمتلكان من مخزونات معرفية مختلفة، عملت على إضاءة تلك المخزونات .

بينما تطلعت الرؤيا إلى الكشف عن آفاق الحركة التاريخية النامية من خلال تبصرها في فضاءاتها ، واستبطانها لعلاقاتها وقضاياها ، وكشف الحجاب عن المخبأ والمستور فيها ، بما يعمق الوعي بها ، ويدفع لمواجهة عناصر السلب والنكوص التي يمكن أن تتحكم في مفاصلها ، من أجل تجاوزها ، وبناء بدائل أكثر إيجابية لها .

من هنا " يبدو (يوسف الخال) من أكثر المتحمسين لفكرة التجديد ..... وما ذلك إلا لإيمانه الكبير بضرورة التغيير ، التغيير الأدبي الذي لم يفصله عن باقي مجالات الحياة ، التغيير الذي سيفضي إلى خلق فكر جديد ، جيل جديد ، الانطلاق من صفاته والحرية من مبادئه " [2] . وقد وجدنا كيف تجسد كل من حماسه وإيمانه في إبداع الجديد والمختلف بما يكشف عن شخصية شعرية متميزة ، صقلتها تجربة فنية غنية أنجزت استحقاقاتها بمزيد من الأصالة والموهبة .

---

[1] **د. مصطفى ناصف ، *نظرية التأويل* ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2000 ، ص203 .**

[2] **د. فاروق مغربي، *معالم الفكر النقدي عند جيل الرواد* ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط1 ، 2010 ، ص131 .**

المراجع:

1- أدونيس . زمن الشعر . دار العودة ، بيروت ، ط2 ، 1978 .

2- جيده، د. عبد الحميد. الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر. مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط1، 1980.

3- الخال ، يوسف . الأعمال الشعرية الكاملة . دار العودة ، بيروت ، ط2 ، 1979 .

4- الخال ، يوسف . الحداثة في الشعر . دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1978 .

5- سعيد ، خالدة . الملامح الفكرية للحداثة . مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثالث 1984 .

6- صبحي، محي الدين . الرؤيا في شعر البياتي . منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1986 .

7- لوسركل، جان جاك. عنف اللغة. ترجمة وتقديم: د.محمد بدوي، مراجعة سعيد مصلوح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، ط1 ، 2005 .

8- مغربي، د.فاروق. معالم الفكر النقدي عند جيل الرواد. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط1 ، 2010 .

9- الملائكة ، نازك . قضايا الشعر المعاصر . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4 ، 1974 .

10- مهنا، عبد الله أحمد. الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة . مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد التاسع عشر، العدد الثالث 1988 .

11- ناصف، د. مصطفى. نظرية التأويل . النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2000 .